تجليات مظاهر العنف في الرواية الجزائرية المعاصرة
رواية أشباح المدينة المقتولة لبشير مفتي نموذجا

The violence in contemporary Algerian novel ''The ghots of the killed city'' by Bechir Mefti

الدكتورة: نبيلة بلعبدي
n_belabdi@yahoo.fr
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2019/02/04 تاريخ القبول:2019/05/18 تاريخ النشر: 2019/06/07

الملخص:

تعد الرواية من الأشكال النثرية التي تتناول الحياة الإنسانية الشاملة لمختلف مناحي الحياة المادية والروحية المحسوسة وغير المحسوسة، وهي قول ما لا يستطيع الآخر البوح به عبر الكلمات والأحداث بطريقة فنية محترفة تتسلل إلى قلب وعقل القارئ لتكون مرآة عاكسة يرى من خلالها نفسه ومجتمعه ، وقد يكون الموضوع المتناول " العنف" الذي لم يكن ليخفى على الروائيين الذين عايشوه ورفضوه وقدموه في أعمالهم ليعبر عن واقع أليم راجين من ورائه التغير نحو الأفضل ، إذ يجمع علماء النفس أن العنف نمط من أنماط السلوك ينتج من حالة إحباط ويكون مصحوبا بعلامات التوتر ، وفيه نية مبيتة لإلحاق ضرر مادي أو معنوي بكائن حي .

نود من خلال هذه الورقة البحثية تقديم تجربة الروائي بشير مفتي في روايته "أشباح المدينة المقتولة" حينما تكلم عن المدينة التي توحي من خلال تسميتها بالاستقرار والتمدن والتحضر إلى عكس دلالتها تماما ، وذلك نظرا للمرحلة العنيفة التي عرفتها الجزائر بمدنها ومداشرها في تاريخها المعاصر وهي "العشرية الحمراء" مقدما صورا لأشكال العنف منه الإرهابي والسياسي والاجتماعي والعنف ضد المثقف وضد المرأة، آملا في مدينة آمنة متحضرة وراقية برقي أهلها ومجتمع تربطه علاقات الأخوة والمحبة لأن الكتابة ليست استعراض الحقائق بفنية فحسب أنما رسالة شريفة تصدر من نفس متألمة تحلم بالتغيير إلى ما هو خير وأحسن.

الكلمات المفتاحية: الرواية؛ العنف؛ المدينة؛ المرأة.

Abstract: In this paper , we are dealing with " The ghots of the killed city ", a novel written by M. Bechir Mefti from Algeria. In his work, the violence that his country knew during the 90's is presented. Different aspects of the violence have been treated: the cruelty of the religious terrorism and the aggressions against the intellectuals and women are presented as political and social violence.

This subject has been treated with the hope to conceive a secure , a civilized and a prosperous society in the future. The writer expressed his wishes for a better life inside his country for the next generations.

Key words: Novel; violence; city; women.

مقدمة:

تعد الرواية من الأشكال النثرية التي تتناول الحياة الإنسانية الشاملة لمختلف مناحي الحياة المادية المحسوسة وغير المحسوسة وهي قول ما لا يستطيع الآخر البوح به عبر الكلمات وسرد الأحداث بطريقة فنية محترفة تسلل إلى قلب وعقل القارئ لتكون مرآة عاكسة يرى من خلالها نفسه ومجتمعه.

قد يكون الموضوع المتناول هو "العنف" بصفة عامة أو العنف في المدينة بصفة خاصة مثل التجربة الروائية المقدمة من قبل الروائي "بشير مفتي" ولذا ننطلق من الإشكالية التالية: ما الذي جعل الروائيين الجزائريين يوظفون تيمة العنف في أعمالهم الروائية؟ ولأي غرض خص الروائي بشير مفتي "تيمة العنف" بالمدينة؟

لم يكن هذا الموضوع ليخفى على المبدعين الروائيين في الجزائر لأنهم عايشوا العنف ورفضوه وقدموه في أعمالهم ليعبر عن واقع أليم ويؤرخ له راجين من ورائه التغير نحو الأفضل .

العنف لغة:

وردت لفظة العنف في قاموس لسن العرب على أنّها: "الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو ضد الرفق عنف به يعنف عنفا وعنافة وأعنفه وعنّفه تعنيفا، وهو عنيف إذا لم يكن رفيقا في أمره واعتنف الأمر: أخذه بعنف وفي الحديث: إنّ الله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، هو بالضم، الشدة والمشقة، وكل ما في الرفق من الخير ففي التعنيف: التوبيخ والتقريع واللّوم، يقال: أعنفته وعنّفته معناه: لا يجمع عليها بين الجد والتوبيخ"[1].

وأما اصطلاحًا فقد تعددت آراء الباحثين والدراسيين حول مفهوم العنف كل حسب تخصصه ونظرياته.

يعرفه علماء الاجتماع بأنّه: "فرض شيء ما بالقوة لم يستطع فرضه بغيرها أو أنه عبارة عن الممارسات التي تتضمن استخداما فعليا للقوة لتحقيق هدف عجز مرتكبوها عن الوصول إليه بغيرها"[2] يعني أنّ العنف هو الحصول على شيء ما بالقوة لم يستطع الحصول عليها بغيرها.

ويعرف أيضا بأنه: ذلك "السلوك المنظم الذي يتضمن استخدام القوة في الاعتداء على شخص آخر دون إرادته أو الإتيان أو الامتناع عن فعل أو قول من شأنه أن يسيء إلى ذلك الشخص، ويسبب له ضررا جسمانيا أو نفسيا أو اجتماعيا"[3].

كما يعرفه علماء النفس بأنّه: "نمط من أنماط السلوك ينتج عن حالة إحباط ويكون مصحوبا بعلامات التوتر، وتحتوي على نيّة مبيتة لإلحاق ضرر مادي أو معنوي بكائن حيّ"[4] أي أنّ العنف مرتبط بسلوك الإنسان يحدث نتيجة مؤثرات نفسية تهدف إلى إلحاق الأذى بالآخرين.

وفي تعريف آخر هو: "تلك الاعمال الإرهابية التي صدرت من منظمات مسلحة تنتمي إلى الإسلاموية الحزبية المتطرفة، والتي وجهت عنفها إلى الشعب بكافة فئاته بدء من المواطن البسيط إلى رجل السلطة، ولم تقتصر أعمال العنف على القتل وحده، بل تشتمل على العنف اللغوي والنفسي، وكذلك التهميش الأسري والاجتماعي"[5] يعني أن العنف مرتبط بالأعمال الوحشية التي قامت بها الجماعات الإرهابية المتطرفة ضد الشعب عامة باسم الدين الإسلامي، ارتبطت أعمالهم بالعنف الجسدي والنفسي واللغوي، والقهر الاجتماعي أيضا.

من خلال هذه التعاريف المختصرة لمفهوم العنف يتضح لنا أن للعنف تعاريف متعددة ومعاني ودلالات مختلفة إلاّ أنّها تشترك جميعها في استخدام القوة للوصل إلى هدف ما، وللعنف أنواع هي:

1- العنف السياسي:

يعرّفه الشريف حبيلة على أنّه: " العنف الذي يوجهه النظام إلى المواطنين أو إلى جماعات أو عناصر معينة وذلك لضمان استمراره، وتقليص القوى المعارضة والمنازعة له، ويمارس النظام العنف من خلال أجهزته القهرية كالجيش والشرطة، والمخابرات والقوانين الاستثنائية"[6] أي أنّ السلطة تستعمل العنف باستخدام وسائلها القهرية ضد المواطنين لضمان بقائها والإطاحة بكل من يخالفها.

2- العنف الإرهابي:

الإرهاب شكل من أشكال العنف، تعددت واختلفت تعاريفه:

"يعني استخدام العنف أو التهديد باستخدامه، قصد إثارة الفزع ونشر الرعب باستخدام الوسائل التي تتراوح بين الاغتيالات وتفجير والقنابل، والهجوم المسلح على المنشآت والأفراد واختطاف الأشخاص"[7]الإرهاب هو عمل إجرامي يقوم على التهديد باستخدام الوسائل العنيفة والوحشية بهدف نشر الخوف والرعب في نفوس من يقف ضده.

العنف الثوري:

يعرف بأنّه: "عمل من أعمال العنف، يتخذ صورة نضال مسلح يقوم به جانب من الشعب في وجه حكومتهم خروجا على قوانينها، مما يعرقل ممارستها لسيادتها، والثورة وضع قانوني يعتبر وسط بين الانقلاب والعصيان والتمرد من ناحية، والحرب الأهلية من ناحية أخرى، ففي الحالة الأولى يقوم بانقلاب لفيف من رجال الحكومة أو الجيش، وتنتهي آثاره إلى طبقات الشعب، أما الثانية يقوم بها قطاع من الشعب، يمثل في كثير من الأحيان طبقة شعبية أو مقاطعة من إقليم الدولة يحول الثورة إلى ما يعرف بالحرب الأهلية"[8] العنف الثوري شكل من أشكال العنف الذي يتخذ الكفاح المسلح وسيلة معارضة ضد نظام الحكم القائم فيعرقل مساره السياسي يأتي على شكل انقلاب أو عصيان أو تمرد من طرف رجال الحكومة أو الجيش الذي يؤثر في النهاية على كافة الشعب، ويأتي على شكل حرب الأهلية التي يقوم بها جانب من الشعب حيث تتحول الثورة إلى حرب داخلية.

العنف الاجتماعي:

يعرف أيضا بأنّه: ذلك العنف "الذي يتمظهر في شكل أفعال مفردة أو جماعية منعزلة تستهدف الأشخاص أو الجماعة والمؤسسات سواء كان الفعل ضربا أوسطوا، أو اغتصابا أو تكسيرا"[9] أي أنّ العنف الاجتماعي يتمثل في أفعال الفرد أو الجماعة ضد الآخرين عن طريق الضرب أو السطو، أو الاغتصاب أو التكسير.

وللعنف الاجتماعي أشكاله المتمثلة في: القهر الاجتماعي، العنف الأسري، العنف ضد المرأة.

أ- القهر الاجتماعي:

القهر هو شكل من أشكال العنف، "يعيق حرية الإنسان، بمثابة توصيف لسلب الإرادة، لأنّ الإنسان المتحرر من العادات والتقاليد الجائرة هو الذي يبني وعيه بنفسه، أمّا إذا ركن إلى الوجود الاجتماعي متنازلا عن إنسانيته صار واحدا من قطيع المجتمع، مجرد شيء لا يملك إرادته وذاته، تصدر أفكاره عن غيره، تكون النتيجة شخصية غير فاعلة، أفعالها أفعال الغير، ورغباتها رغبات الآخرين"[10] أي انّ القهر الاجتماعي مرتبط بالمجتمع الذي تسوده تلك العادات والتقاليد

التعسفيّة، التي تقيّد الفرد وتسلب منه كل شيء فتجعله بذلك شخصية سلبية غير بناءة في حياته ولا في مجتمعه، فشخصيته شخصية غيره لا شخصيته هو.

ب– العنف الأسري:

ويمكن تعريفه على أنه: "أحد أنواع الاعتداء اللفظي أو الجسدي أو الجنسي الصادر من قبل الأقوى في الأسرة ضد فرد أو الأفراد الآخرين وهم يمثلون الفئة الأضعف، مما يترتب عليه أضرار بدنية أو نفسية أو اجتماعية"[11] العنف الأسري هو العنف الذي يصدر من طرف الشخص القوي في الأسرة ضد الأضعف منهم مما يسبب أذى جسديا أو نفسيا أو اجتماعيا.

ج– العنف ضد المرأة:

ظاهرة العنف ضد المرأة معروفة منذ القدم، ظهرت لدى جميع الشعوب "تنشر ظاهرة العنف ضد المرأة في الشرائح والطبقات الاجتماعية كافة، فهي قضية عالمية عربية ومحلية"[12] أي انّ ظاهرة العنف ضدّ المرأة قضية العالم بأكمله وليست قضية بلد ما فقط لأنّها منتشرة في أنحاء العالم.

العنف الجنسي:

وقد عرّفته سناء محمد سليمان بقولها:"هو لجوء (الآخر) إلى الاستدراج بالقوة والتهديد، إما لتحقيق الاتصال الجنسي مع الفتاة أو استخدام المجال الجنسي في إيذائها، مثل التحرش الجنسي، والشتم بألفاظ جنسية نابية، والهجر من قبل الزوج، والإجبار على ممارسة الجنس، والإجبار على القيام بأفعال جنسية لا تحبها المرأة"[13] يتعلق العنف الجنسي بالمرأة خاصة، وذلك باستخدام القوة أو التهديد من طرف الرجل وذلك بإجبارها على فعل شيء لا تريده.

5– العنف اللفظي:

وهو من اكثر أنواع العنف شيوعا بين أفراد المجتمعات إذ "يعد أكثر أنواع العنف خطرًا على الصحة النفسية للفرد المتعدي عليه، بالرّغم من أنه لا يترك آثارًا مادية واضحة للعيان إذ يقف عند حدود الكلام والإهانات، وهو أكثر أنواع العنف شيوعا في المجتمعات الغنية والفقيرة على حد سواء، يتمثل في السخرية والتوبيخ والتهديد وكل ما يجرح المشاعر ويلحق الأذى النفسي أو الاجتماعي"[14]، العنف اللفظي أحد أنواع العنف خطورة على الصحة النفسية للفرد، من خلال ما يتلقاه من غيره من إهانات وسخرية وتوبيخ تجرح مشاعره فتسبب أذى نفسيا أو اجتماعيا.

6– العنف الجسدي:

وهو من أخطر أشكال العنف انعكاسا على الحالة النفسية، وهو "أشد وأبرز مظاهر العنف، ويتراوح من أبسط الأشكال إلى أخطرها وأشدها مثل: الضرب، شد الشعر، الصفع، الدفع، المسك بعنف، والخنق"[15].

يعتبر العنف الجسدي أشد درجات العنف خطورة يبدأ من أبسط الأشياء إلى أخطرها.

7– العنف النفسي:

هو ذلك "العنف الذي يتمّ من خلال القيام بعمل معين، أو الامتناع عن القيام به، وهذا وفق مقاييس مجتمعية ومعرفة علمية للضرر النفسي، وقد تحدث تلك الأفعال على يد شخص أو مجموعة من الأشخاص الذين يمتلكون القوة

والسيطرة لجعل الفرد متضررا، ما يؤثر على وظائفه السلوكية والوجدانية والذهنية"[16] العنف النفسي هو ذلك العنف الذي يقوم به الشخص القوي والمسيطر على الشخص الضعيف قصد إيذائه نفسيا.

أصبحت تيمة العنف هاجسا لبعض الكتاب والأدباء الجزائريين، ومنهم بعض الروائيات اللواتي طرحن موضوع المرأة وتعرضها للعنف كالاغتصاب بكل جرأة وكيف يتجاهل المجتمع والقانون هذا الموضوع حيث عملت الأديبات الجزائريات على وصف معاناة المرأة وقهرها من خلال ما تعرضت له من عنف وقهر أسري واجتماعي وإرهابي ونذكر على سبيل المثال، فضيلة الفاروق في روايتها" تاء الخجل"[17]، ورواية: قليل من العيب يكفي لزهرة ديك[18].

وأما موضوع العنف في المدينة فقد جسدها الروائي بشير مفتي في روايته "أشباح المدينة المقتولة" والمدينة تعتبر أحد الأشكال المتطورة من أشكال التجمعات الإنسانية، حيث تصوغ المدينة أساليب الحياة التي تتلاءم مع بنيتها العمرانية والاقتصادية والأيديولوجية وتناسب الطابع الاجتماعي الخاص بها، وقد بلغت الحياة في المدينة ذروة التعقيد، مما جعل أنماطها المعيشية تتغير من أجل أن تتماشى مع مكونات الحضارة المعاصرة، وأصبح على السكان التكيّف والتوافق مع أوضاع وظروف المدينة[19] لكن المدينة عند الروائي بشير مفتي دامية مهجورة لم يبقى منها سوى الأشباح.

ملخص رواية أشباح المدنية المقتولة:

صدرت هذه الرواية عن طبعة مشتركة، منشورات ضفاف ومنشورات الاختلاف، في طبعتها الأولى 2012 لمؤلفها "بشير مفتي" تقع في مائتين وتسعة وستون صفحة، هي مقسمة إلى خمسة عناوين، لكل عنوان فصول.

تحكي رواية "أشباح المدينة المقتولة "قصة شخصيات متعددة، تسكن في حي شعبي واحد اسمه "مارشي اثناش"، كل شخصية فيها تتداول على سرد الرواية بدءً بالكاتب "سعيد" الذي سيحكي قصته وقصص بعض سكان الحي، كالمجاهدة التي تعيش في عزلة طويلة وقصة حبه مع "زهرة الفاطمي" ووالده الشاعر السجين الذي يعتقل في 1988 م ولا يعود للبيت[20].

تعدد شخصيات رواية "أشباح المدنية المقتولة" بتعدد المواضع الذي طرحها مفتي في روايته، حيث نجد شخصية الهادي بن منصور "السينمائي" الذي يعود من بلغاريا بعد دراسة طويلة، ويحاول أن يخرج فيلما عن الحي الشعبي فيصطدم بالبيروقراطية وبالذهنية التقليدية التي ستدفعه إلى التخلي عن حلمه السينمائي، ويعمل كعازف جاز في حانة على البحر وقصته العاطفية مع "ربيعة" التي سيكشف عبرها مفاجآت غير سارة عبر ذكريات عن فترة دراسته في ارغب، حيث كانت له قصة مع معلمة الموسيقى "آنينيا" التي يكتشف عبرها مناهج الجسد ومتعة الحياة دون ضغوط أخلاقية، وهو ما يجعله يقارن بين الحياة في بلده وبين الغرب ويجعله يفكر كل مرة في العودة إليه.

كما نجد شخصية "الزاوش الغريبة" التي تتطور من طفل مشاغب جالب للمشاكل يحب الحياة واللعب مع أصدقائه، إلى شاب يدخل السجن من أجل فتاة كان يحبها ولكي ينقذها من عنف زوج والدتها، يعتدي عليه فيكاد يقتله وهو ما يجعل المحكمة لا تتسامح مع سلوكه وتحكم عليه بالسجن سبع سنوات، كانت كافية لتحوله إلى شخص آخر متعلق بالجماعات الدينية، وعندما يخرج يجد المناخ التسعيني قد تهيأ، لينضم للجانب العسكري فيها، ويقوم بالاعتداء على كل من يخالف المشروع العقائدي الجديد.

ثم إلى شخصية "المؤذن الظريف" الذي عهده والده الإسكافي إلى إمام المسجد كي يربيه وعلمه القرآن لكن الصبي أحبَّ منذ صغره "سعاد بنت الخباز"، بقي محتارا بين طريق الدّين والحب، ولأن حبه مستحيل نتيجة الفوارق الاجتماعية يغرق في البحث عن الله والإيمان والعمل الصالح، ويخلف الإمام بعد وفاته ولكنه يجد صعوبة في التكيف مع التيارات الدينية المتطرفة، التي تصعد فجأة إلى الواجهة، بعد 1988 وهو ما يدفعه إلى الاعتزال والخروج من ذلك الحي.

مظاهر العنف في رواية أشباح المدنية:

العنف السياسي:

يتمحور العنف السياسي في السيطرة على الجماعات السياسية من قبل الدولة التي تسعى بكل جهدها إلى الحفاظ على نظام الحكم، غير أن هذه الجماعات السياسية أحيانا هي من تثور على حكم الدولة، لتثبت رفضها لنظام الحكم السائد بهدف تغييره أو قلبه.

ويتجلى هذا النوع من العنف في هذه الرواية من خلال الانقلاب الذي قام به الجيش بقيادة هواري بومدين على الرئيس أحمد بن بلة الذي كان يحكم البلاد في تلك الفترة "وقع الانقلاب على الرئيس بن بلة من طرف الكولونيل بومدين"[21] فلفظة الانقلاب تدل على أن هذا العنف سياسي، فحكم هواري بومدين الذي كان سائدًا في تلك الفترة كان له أيضا معارضون يريدون أن يكون الحكم بيد المدنيين لا العسكريين.

ومن العنف السياسي أيضا فساد السلطة الذي كشفه النص الروائي والمتمثل في تشجيع أعمال الشغب، وعدم ردع الإرهابيين في فترة العشرية الحمراء، وعلى سبيل المثال ما يلي:" كنت أنتظر مع ذلك أن تأتي الشرطة لتوقفنا عن هذه الأعمال، فلقد ضايقنا بعض التجار المفسدين، وهم لا شك يملكون معارف هنا أو هنالك، لكن لم يحدث ذلك، لسبب أجهله، كأن عملنا كان يخدم هدفهم دون أن نعرف، لكن مرة واحدة فقط اتصل بي شخص، يرتدي بدلة أنيقة وطلب رؤيتي... سألته ماذا تريد؟ فأخبرني بأنه يعرف ماذا نفعل، وهو مخالف للقانون، لكن سنغض البصر عما تقوم به"[22] أي أنَّ فساد السلطة يظهر من خلال صرف نظر السلطة عن الأعمال غير الشرعية التي كان يقوم بها الإرهاب، " وقد استطاع النص الروائي الإشارة إلى عنف السلطة وتعرية ممارستها القهرية... فوجدها رمزاً للعنف، وتشجيعاً له"[23].

العنف ضد المثقف:

يعتبر عنف السلطة السبب الرئيسي إلى من أسباب العنف وأشكاله في المجتمع ومنه استخدام الوسائل القهرية الرادعة للنخبة المثقفة التي تبدي رأيها الصريح في السلطة والتي يعتبرهم المجتمع المترجم الحقيقي لعواطفه وأحلامه وآماله "إنّهم مواجهون بسلطة وطنية تقمعهم أيديولوجيا وتتنكّر لدورهم في النضال الوطني ومجتمع يقصيهم عنه من حيث كونهم مثقفين نخبويين"[24]، فقد أعطى بشير مفتي في روايته مثالا عن هذا العنف تمظهر من خلال شخصية (والد الكاتب الشاعر) الذي نال حقه من الضغوطات السلطوية، لكونه مثقفا نتيجة تحريره لمقال منتقدا فيه حكم بومدين العسكري، مما تسبب ذلك في اعتقاله من طرف الشرطة السرية "...كتب مقالا انتقد فيه المنقلب عليه، والذي قاد الانقلاب، نشر المقال، وفي الغد جاءت السلطة السرية، واعتقلته على الفور"[25]، من خلال هذا القول تبيّن لنا ان الحكم كان بيد

العسكريين، فوقفت السلطة ضد كل من يعارضها ويعارض حكمها خاصة المثقف الذي صدّته بكلّ وسائلها القهرية كالاعتقال الذي مارسته في حق هذا الشاعر.

كأن المثقف شخص مشبوه فيه مراقَبْ يتعرض لمضايقات حُرمت عليه الكتابة والكلام بحرية وإبداء رأيه بموضوعية وصدق.

تظهر لنا كذلك صورة السينمائي (الهادي بن منصور) الذي تعرض هو الآخر للقهر السلطوي، لكونه مثقفا أراد تجسيد ما تعلمه في الخارج (بلغاريا) فعاد إلى وطنه محمّلا بآمال في تحقيق حلمه، وهو إنتاج فيلم حول حي من أحياء الجزائر، غير أنه قوبل بالرفض من طرف السلطات المسؤولة عن الإنتاج السينمائي "كانت الفكرة الوحيدة التي استولت عليّ بعد استقراري من جديد أن أنجز أوّل فيلم لي عن حي "مارشي اثناش" والحياة كما يعيشها الناس في بساطتها ويومياتها المعتادة، استهوتني الفكرة بسرعة إلاّ أنها بدت لي الأكثر تقبلا في واقع الجزائري الذي يحتاج إلى توظيف وتشريح ودخوله إلى أعماقه الهشة رغم الصلابة التي يتظاهر بها في الخارج لكن سيناريو من هذا القبيل كان سيثير سخرية الشرطة للإنتاج السينمائي التي كانت تدعم فقط الأفلام ذات البعد الوطني الاشتراكي"[26]، وهذا يعني أنّ الهيآت الممولة للإنتاج السينمائي كانت تدّعم فقط الأفلام الاشتراكية، لأنّ الجزائر في سياستها بعد الاستقلال انتهجت النّهج الاشتراكي وكل عمل يحمل هذا النهج.

يصور بشير مفتي خيبات الأمل التي يجدها المثقف من قبل سلطة عنيفة، تجعله يتخلى عن أحلامه ويخلد إلى الصمت الذي يضمن له العيش في سلام، أو الإصرار على تحقيق حلم أو إبداء رأي لينال عنفا أكبر.

العنف الإرهابي:

اتخذ الإرهاب في الجزائر من الدّين الإسلامي ذريعة له للوصول إلى عرش السلطة حيث وضع الإسلام تحت مفهوم خاطئ، بغية تحقيق غايتهم المنشودة في أن يكون الحكم حكمًا إسلاميًا، بهدف دعم الشعب لهم خصوصا إذ كانت هناك فئة من هذا الشعب تنقاد وراء الوعود الكاذبة والآراء المزيفة وتصدّقها، وتراها المثلى للحكم في البلاد "وهو ما قامت به بعض الجماعات نتيجة للتعصب الديني الناتج عن الفهم الشخصي للنص الديني إذ تحتكر فئة ما تأويله وفهمه، وبذلك احتكار المعرفة بالدّين ... ويكون تأويلها للنّص وفق منطق يخدم أهدافها، فيكسبها الخطاب الدّيني سلطة لا يجد المتلقي سوى الخضوع والولاء لها ... خاصة إذا كان هذا الغير جاهلا بالنص الدّيني"[27].وقد أبرز بشير مفتي معالم هذا الجانب الإرهابي في روايته "كانت الجماعة الغالبة هي التي تريد أن تصل بالدّين إلى سقف العرش بقلب كل شيء على عقبيه، وكانت فترة حالمة بالنسبة لهؤلاء، وأولئك، والناس تسير خلفهم، أو تتبعهم كموجة غامضة" يتضح لنا من خلال هذا القول بأن الإرهاب يسمو إلى بلوغ حدود السلطة متربعًا على عرشها متخذًا من الدين جماليته التي يريد بها تحقيق رغباته بقلب كل شيء تحت اسم الدولة الإسلامية تدعمها حركة شعبية حالمة غير مدركة لحقيقتها.

وقد تميز أصحاب العنف الإرهابي في فترة العشرية الحمراء بصفات مخالفة للإنسان العادي ومنه ما تعلق بالشكل واللباس وقد أوضحها بشير مفتي في مشهد حي يقول فيه: "يرتدون أقمصة بيضاء، لديهم لحى طويلة، والكثير من الرجال عادوا من كابول وقندهار بلباسهم الأفغاني المميز".

أي؛ أنّ بداية الإرهاب في الجزائر كانت من الأفغان خاصة بعد عودة بعض الجزائريين من حرب أفغانستان ومشاركتهم في صفوف الجماعة الإرهابية فكل من يراهم تدّب مشاعر الرهبة والخوف في نفوسهم وهذا ما يصفه لنا الراوي من خلال هذا المشهد الآتي "أصبح سلفيا، وارتدى القميص الرمادي وسروال نصف الساق ووضع الكحل على عينه وأسدل لحية طويلة، وتعطر بالمسك، فصار كالنور المهيب الذي يخيف الظلمات"[28] ومما يمكن قوله أنّ الإرهاب تميز بلمسته المخيفة وهيئته المتنكرة تحت الزيّ الذي تتميّز به الجماعة الإسلامية دلالة على تيارهم السلفي، مما يجعل الأنظار الموجهة إليهم نظرة تهتزّ لها النّفوس.

تعدّى العنف الإرهابي حدوده الإنسانية والأخلاقية، منتهجا بذلك سياسية وحشية قمعية كالقتل والاغتيال (الفردي والجماعي) إضافة إلى التهديد والتفجير ليتحول الإرهاب بذلك إلى عدّو لا يعرف لا رحمة ولا شفقة، همّه الوحيد خلق فضاء مظلم مليء بدماء الأبرياء، وكانت هذه السياسة في المقام الأول موجهة إلى النخبة الفكرية المثقفة خصوصا الصحفيين منهم.

ولقد أشار بشير مفتي إلى هذه السياسة وصوّر بشاعتها من خلال اغتيال الصحفية (وردة سنان) التي تعمل في جريدة حرّة، تنتقد فيها الجماعة الدينية "تعمل صحفية في جريدة مستقلة تنتقد المتدينة وسلوكاتهم، وتقول إنّهم يريدون تأسيس دولة معادية للحرية والحقوق"[29].

وعلى هذا الأساس تتم تصفيتها جسديا وذلك بذبحها من طرف أحد شباب الجماعة الإسلامية الذين أعطوا له الأمر بقتلها "ضربت الباب الخشبي بأسفل حذائي فانكسر، ووجدتها ممدة على السرير تقرأ كتابا... لحيتي صارت تغطي بكثافتها نصف وجهي، شاهدت الخنجر في يدي اليمنى، وعزيمتي المملوءة شرا، شاهدت كل ذلك في نظرتي القاسية والمشحونة وقدرتي على تنفيذ ما جئت لأقوم به، سحبتها من على سرير دون أن تبدي أي مقاومة... بضربة واحدة من الخنجر فتحت رقبتها، وسال دمها على جسمها، ولطخ ثيابي أنا كذلك ثم خرجت روحها، وهمدت أنفاسها، واستكانت لموتها..."[30].

لا ينفك الرّاوي من تناول هذا الجانب في حيّزه الرّوائي الذي أعطى فيه للقارئ صورة سلبية وعنيفة عن الإرهاب تمثلت في قوله:" أناس يرغبون في الموت، ولا يهتمون بمصيرهم، لأنّ أعمالهم هذه ستكون في سبيل الله، وكل شيء يهون من أجل هذه الغاية"[31].

بلغت العمليات الإرهابية ذروتها الدامية، إلى حد جعل أيّ شخص ينضم إليها بتفجير نفسه، مقتنعًا بأنّ هذا العمل تضحية في سبيل الله، وهذا ما يلاحظ في الرواية من خلال شخصية "الزاوش" الإرهابية "ركبت السيارة المفخخة، ولحقني الشاب بعدها، وسرنا بها حتى وصلنا إلى شارع عميروش، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا، كانت الشمس مشرقة، والسماء صافية، والشارع مزدحما على آخره، بالسيّارات والناس الذين لم يكن يتوقع أحد منهم ماذا سيقع له بعد قليل، كنت أنا أقود السيارة، وكلّما اقتربنا من مركز الأمن رحت أنطلق بالشهادة "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله" حتى وصلنا إلى المكان، فأطلقنا أنا والشاب صرخة واحدة "الله أكبر" وحدث الانفجار"[32].

كل من لفظة (السيارة المفخخة، الشارع المزدحم، مركز الأمن، حدث الانفجار) تدل على مكان الانفجار كان الهدف منه إصابة النظام الأمني خاصة والشعب عامة، ويظهر لنا في هذا الصدد نوع آخر للعنف يتمثل في التهديد "لكنّ بعض الناس قالوا عن الزّاوش إنّه صار مرعبا وإنّه يرسل أكفانا لبعض البيوت ويهدّد أصحابها بكلمات قليلة" هذا مصير كلّ من يتعامل مع الطّاغوت"[33].

وصل به الأمر إلى إرسال الأكفان إلى بعض البيوت تحذيرا وتهديدا منه لكلّ من يقف ضدّه.

ويشير الروائي بشير مفتي إلى أن الديمقراطية هي سبب حدوث الفتنة في المساجد وبروز الصراعات بين المتدينين، وانتهى الأمر إلى إبعاد الأئمة والمشايخ واستبدالهم بموجة من المشايخ السلفيين فكانت أصواتهم تعلو وترتفع[34].

الألوان الدالة على العنف:

استخدم الرّوائيون في كتاباتهم التي عالجوا فيها ظاهرة العنف في الجزائر عدة ألوان، عبّروا في مجملها عن نظريتهم التشاؤمية من الواقع المعاش في ظلّ الإرهاب "فالنصوص الروائية الجزائرية غلب عليها مجموعة من الألوان ذات الأبعاد والدلالات التشاؤمية، مثل: اللون الأسود والرمادي والأحمر"[35].

الروائي "بشير مفتي" هو الآخر وظّف هذه الألوان "سمعنا دويّ انفجار عنيف، اهتزّت الأرض، تداخلت الأحلام مع الكوابيس، تفجر زمن الحلم الأبيض، صار الجوّ رماديا، بلون بخاري رمادي كثيف، غاب الضوء، السقف سقط نصفه على القاعة، والقاعة ارتفعت إلى السماء، الدم سال، نقاط حمراء تحولت إلى بحيرة دماء متناثرة، الوجه الجميل صار أسود، أحمر، أزرق، العينان تنظران إلى الأفق، لا شيء في الأفق غير دخان انفجار مرعب هزّ كل شارع عميروش حينها... في الدخان الكثيف، وأصوات القتلى الذين يذهبون يصعدون، يرحلون إلى مكان آخر من هذا العالم"[36].

في هذا المقطع عدّة ألوان (الأبيض، الرمادي، الأحمر، الأسواد، الأزرق) وهي كلّها تدل على شدة الحزن وقمة الكآبة وكثرة المآسي التي عاشتها الجزائر في ظلّ الإرهاب الوحشي "الألوان الطاغية على النصوص الروائية تتوزع على أربعة ألوان هي: الأحمر والأسود والأبيض والرمادي وهذه الألوان ترد في سياق آخر وقد تحمل طابعا آخر وإيحاء يوحي بالفرح والبهجة والسعادة لكنها هنا وردت في وضعية باعثة للموت فلا يرى القارئ إلا أماكن متشحة بالسواد وتنضح بلون الدماء، ولقد كان الروائيون موفقين في تكثيف دلالة الحزن والموت من خلال هذه الألوان، فجاءت الألوان ممسوخة لا تحمل معنى للحياة"[37] نجد تكرار اللون الرمادي مرتين في المقطع السابق وهو اللون "الذي يحسس المتلقي بضبابية الرؤية واختفاء الحقيقة"[38].

وبهذا تكون الألوان جزء منها مهما في الرواية الجزائرية، حيث عمد الروائيون إلى اختيار هذه الألوان من أجل إعطاء صورة لظاهرة العنف، بهدف نقده وإدانته بكلّ الوسائل "وبذلك تكون الألوان عنصرا من العناصر المشكلة للنصوص الروائية بفضاء نصي مرسوم بإتقان شديد، من أجل الوصول إلى رسم صورة للعنف بهدف إدانته ونبذه بكامل الطرق والأساليب"[39] فالجزائر اكتسحتها هذه الألوان خلال فترة الإرهاب وهذا ما تمّ تجسيده في مختلف الأعمال الروائية التي تحدثت في مضمونها عن هذه المحنة الدّموية.

العنف الأسري:

عُرف المجتمع الجزائري على أنه مجتمع ذكوري، حيث أن الرجل هو الآمر الناهي، فأصبحت الأولوية له في تسيير أمور الأسرة داخلها وخارجها، مهمشين بذلك الدّور الفعال للمرأة، لكون الرجل هو الذي يمثل القوة، ويظهر هذا جليًا في مقطع من الرواية "بقيت قاعات السينما ذكورية ومحظورة على الإناث، ولا تدخلها النساء إطلاقا، اللهم إلاّ تلك الخادمة"[40].

يتأسّف الكاتب في هذا المقطع على فكر المجتمع الجزائري الذي يعطي الحرية للذكور في كل شيء عكس النساء، فمثلا كان حضور السينما، يقتصر على الرجال دون النساء، وتظهر لنا السلطة الذكورية في مقام آخر من الرواية يتمثل فيما يلي: "فكنت أكرههم كرهًا شديدًا من شهوة تسلطهم عليّ، وخاصة عندما لا أجد من يدافع عني، رغم ذلك يجب أن أعترف بأنه كوني ولدًا وليس بنتًا هذا كان يرفعني إلى مقام أعلى في البيت فأخواتي كن يعانين من قهر إخوتي الذكور، وحتى من طرف أمي كانت كالضابط في ثكنة عسكرية، وتريهن كل شرور المعاملات القاسية، ومن هذا الباب فقد شعرت بأنني محظوظ بعض الشيء، ومهما كانت متاعبي لأني أصغرهم سنًا فهناك من كان يقاسي أكثر لسبب آخر في البيت"[41] أي أنّ الأخ الأصغر في الأسرة كان يعاني من تسلط أخوته الكبار، غير أنّ معاناته ليست بمثل معاناة البنات، فهن يعانين الأمرّين معًا، الأول قهرهم من طرف إخوتهم الذكور، والثاني هو المعاملة القاسية التي كنّ يتعرضن لها من طرف الأم، لهذا كانت معاناتهن أكبر خاصة داخل الجوّ العائلي.

يعتبر الضرب والركل أحد أنواع العنف الذي يمارس داخل الأسرة، من طرف فرد قوي ضد فرد آخر ضعيف "رأيت زوج أمها يضربها بقسوة شديدة لسبب أجهله، كان يضربها كما لو أنها خشبة لا تشعر بشيء، وأمها تصرخ وتستغيث، لكن لم يتدخل أحد لإنقاذها منه، أمّا أنا فمن شدة إحساسي بألمها تدخلت، وحاولت دفعه رغم قلة قوتي ... وهنا أحسست بيد غليظة تمسكني من كم قميصي، وترميني على الأرض، ولم تكن اليد غير يَدِ والدي الذي راح يركلني أمام الجميع أنا أيضا، وهو يصرخ "ما دخللك فيهم؟"[42].

يلجأ الكبار عامة والآباء والأمهات خاصة، إلى الضرب لمعاقبة الصغار على قيامهم بأمور مخالفة لتربيتهم "والدي كان يضرب عندما تُعصى أوامره دون تفكير، أمي أيضا رغم حنّوها المبالغ فيه كانت تفعل نفس الشيء، أخوتي الكبار، المعلمون، ومدير المدرسة، وكل من هو كبير في السن داخل الحي كان له الحق في تأديب الصغار"[43] من حق الكبار أن يعاتبوا الصغار، إذا كانت أفعالهم وأعمالهم تعكس تربيتهم ومبادئهم ولكن من الأفضل أن يكون عتابًا بسيطًا، ويكون في محله ولا يعني ذلك أن تضربهم دون سبب يذكر، لا بد من وجود سبب مقنع يستحق الضرب عليه.

كذلك تسعى الأسرة إلى حبس حرية أفرادها وخاصة حرية المرأة التي يُمنع عليها حتى حق الاختيار في شريك حياتها، وكأنّ ليس لها أي دور في هذه في هذه الحياة، هم يقررون عنها ويختارون لها وهي فقط التنفيذ دون مناقشة الأمر معهم ويظهر هذا من خلال: "زوجوني منه صغيرة، وقالوا: "لا تعودي إلينا أرجوك ... لقد تربيت على العنف، أبي كان يضربني هو الآخر لمجرد أن يشتبه في أن شخصًا يهتم بي"[44] وكأن هذه الفتاة تشكل عبئًا على أهلها، فأرادوا تزويجها دون

أية مراعاة لمشاعرها أو ما هو رأيها في هذا الموضوع، المهم عندهم أن تذهب ولن تعود إليهم، رغم ما لقيته من عنف وضرب من والدها.

يتعدى أحيانا العنف داخل الأسرة حدود المعقول، ليصل إلى الضرب المبرح، الذي يتسبب في كسور ما أو جروح، مؤثرة بذلك على نفسية الفرد وجسده.

وهذا ما جاء من خلال ما يلي: نعم تذكرت قصصه المأساوية تلك وحتى طريقة والده في تعذيبهم عندما يخطئون بل مرة أتذكر أنّي بكيت مه عندما قصَّ عليَّ كيف أن والده علَّقه من رجله بعد أن عراهُ من ثيابه وراح يجلده بسلك من حديد حتى سال الدم أحمرًا على الأرض"[45] كان الأب أشد تسلطا على أولاده حتى وصل به الأمر إلى ضربهم أشد الضرب، خصوصًا عندما يخطئون، وهذا ما يلخصه الواقع المعاش سواء أكان مجتمعًا عربيًا أم مجتمعًا جزائريًا فقد كان "الأب يمسك زمام السلطة المطلقة وهو المتحكم بشؤونها سواء كان مصيبا أو مخطئا، فالسلطة الأبوية تلهم الرهبة والخوف وتدفع إلى الطاعة والخضوع سواء أمارس الأب على الأطفال حقه في الضرب أو التخجيل أو الاستهزاء"[46].

نستنتج من خلال رصد مظاهر العنف الأسري في رواية أشباه المدينة المقتولة أن المجتمع الجزائري يعطي الأولوية للذكور وهو مجتمع تُسيره الأعراف والتقاليد، ولا يعير اهتمامًا للمرأة وفعاليتهما وبهذا "سيطرت السلطة الأبوية في ثقافة المجتمع رغم أن مجتمعها يمر في مرحلة انتقالية وبهذا إلا أننا نرى جذور المجتمع المبني على السلطة الأبوية ما زالت مسيطرة"[47] وعليه فالسلطة الذكورية تلغي دور المرأة وتهمشه.

لقد تم رصد صور متعددة للعنف وأشكاله وكان كل في ذلك في المدينة التي اختارها الروائي بشير مفتي عنوان لروايته، وإن كانت دلالة المدينة تعني التحضر والتطور والهدوء والتفتح، فإنها عند بشير مفتي عكس ذلك تمامًا فهي مقتولة ومذبوحة ومفجرة ومعنفة ولم يبق منها سوى الأشباح المخيفة للأرواح المسلوبة.

وإن تساءلنا عن سبب ربط المدينة بالعنف في هذه الرواية لعلمنا للتو أن الكاتب شخصية مثقفة تتوق إلى التغير وتحلم بمدينة آمنة ، هادئة ، مستقرة، متفتحة، متدينة في غير تعصب، متسامحة خالية من العنف تماما، وهذه الرواية دعوة إلى التغيير ودعوة إلى التحضر ونبذ العنف والتطرف من قاموس حياتنا، ومن حق المدينة أن تعيش وتزهر ومن حق المجتمع أن يعيش في أمان ومحبة وسلام ، كانت هذه هي رسالة الروائي بشير مفتي عبر روايته أشباح المدينة المقتولة.

الهوامش:

[1] ابن منظور: لسان العرب، (مج)، دار صادر للطباعة والنشر، (ط)، بيروت، لبنان، ، ص، 304.

[2] محمد عبده محجوب وآخر: العنف السياسي والاجتماعي قراءات ودراسات أنتروبولوجية، دار الثقافة العلمية، (ط1) الإسكندرية 2004، ص 178.

[3] عباس أبو شامة عبد المحمود وآخر: العنف الأسري في ظل العولمة، دار الحامد للنشر والتوزيع، (ط1)، عمان الأردن، (1435هـ - 2014م)، ص 13.

[4] مصطفى عمر التير: العنف العائلي، دار الحامد للنشر والتوزيع (ط1)، الأردن عمان، (1435هـ - 2014م)، ص 12.

[5] سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة دراسة نقدية، دار الفراشة للطباعة والنشر (ط1)، الكويت، (1431هـ - 2010م) ص 19.

[6] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، عالم الكتب الحديث (ط1)، أريد الأردن، (1431هـ - 2010م)، ص 11.

[7] علي بن فايز الجحني: الإرهاب الفهم المفروض للإرهاب المرفوض، دار للنشر والتوزيع، (ط1)، عمان، الأردن، (1435هـ - 2014م)، ص 15.

[8] محي محمد نبهان: معجم مصطلحات التاريخ، دار يافا العلمية للنشر والتوزيع، (ط1)، الأردن، عمان، 2008، ص 106.

[9] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، مرجع سابق، ص 11.

[10] المرجع نفسه، ص 198.

[11] آمال جمعة عبد الفتاح محمد: القضايا والمشكلات الاجتماعية المعاصرة، مرجع سابق، ص 182.

[12] سناء محمد سليمان: مشكلة العنف والعدوان، مرجع سابق، ص 56.

[13] سناء محمد سليمان: مشكلة العنف والعدوان، مرجع سابق، ص 61.

[14] سناء محمد سليمان: مشكلة العنف والعدوان، مرجع سابق، ص 70.

[15] المرجع نفسه، ص 60.

[16] آمال جمعة عبد الفتاح محمد: القضايا والمشكلات الاجتماعية المعاصرة، مرجع سابق، ص 185 – 186.

[17] ينظر: فضيلة الفاروق، تاء الخجل، منشورات الاختلاف، ط3، الجزائر، 1436هـ - 2015م.

[18] ينظر: زهرة ديك، قليل من العيب يكفي، دار بغدادي للطباعة والنشر والتوزيع الرويبة، الجزائر، 2009.

[19] ينظر: سمية هادفي، سوسيولوجيا وأنماط التنظيم الاجتماعي الحضري، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد 17، ص 170 – 173 تعريف المدنية http:mawdoo3.com/

[20] https://www.djazairess.com/elkhabar/300602.

[21]. بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، منشورات الاختلاف، (ط1)، الجزائر، (1433هـ-2012م)، ص 22.

[22]. بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة مصدر سباق، ص 111

[23] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، مرجع سابق، ص 165

[24] لينة عوض: تجربة الطاهر وطار الروائية، أمانة عمان الكبرى، دط،عمان الأردن،2004 ،ص 270.

[25] بشير مفتي، أشباح المدينة المقتولة، مصدر سابق، ص 22.

[26] المصدر السابق، ص 124، 125.

[27] المصدر السابق، ص 14.

[28] المصدر السابق، ص 108.

[29] المصدرال سابق، ص 108.

[30] المصدر السابق، ص 117.

[31] المصدر سابق، ص 119.

[32] المصدر نفسه، ص 119.

[33] المصدر نفسه، ص 158.

[34] ينظر: المصدر نفسه، ص 280 – 213.

[35] سعاد عبد الله العنزي: صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 93.

[36] بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، مصدر سابق، ص 237.

[37] الشريف حبيلة: الرواية والعنف، مرجع سابق، ص 94.

[38] المرجع نفسه، ص 94.

[39] المرجع نفسه، ص 99.

[40] بشير مفتي، أشباح المفتولة، مصدر سابق، ص 18.

[41] المصدر نفسه، ص 76.

[42] بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، مصدر سابق، ص 79.

[43] المصدر نفسه، ص 80.

[44] بشير مفتي: أشباح مدينة المقتولة، مصدر سابق، ص 162.

[45] بشير مفتي: أشباح المدينة المقتولة، مصدر سابق، ص 243.

[46] سعاد عبد الله العنزي، صور العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، مرجع سابق، ص 70.

[47] أمال جمعة عبد الفتاح محمد، القضايا والمشكلات الاجتماعية المعاصرة، مرجع سابق، ص 179.